سلطان العلماء وبائع الأمراء

يُعد الإمام العز بن عبد السلام من أبرز الشخصيات الإسلامية التي حققت تلك الصورة التي نشير إليها في عزة العلماء وجسارتهم على قول الحق، وتقديم رقابهم فداء لمصلحة الأمة، ومن قبلها فداءً للحق وكلمته.. عاش العز بن عبد السلام في القرن السابع الهجري، وكان غزير العلم متبحرًا في مختلف علوم الشريعة، استطاع أن يخلد اسمه في التاريخ بمواقفه الشجاعة في وجه الحكام الجائرين الظالمين، الذي لم يكن يخشاهم ولا يخشى بطشهم ، بل كانوا هم الذين يخشونه ويحسبون له ألف حساب! لحب الناس له وقربهم منه وتعظيمهم لشأنه وإكبارهم لمكانته.

ولد الإمام العز بمدينة دمشق سنة (٥٧٧) للهجرة لأسرة فقيرة تعاني شظف العيش وألم الحاجة، ولما توفي أبوه ذهب ليعمل في نظافة المسجد وحراسة نعال المصلين.. ولما كان قريبًا من المسجد، كان يصل لسمعه كلام الشيوخ في دروسهم التي يلقونها في ساحته.. وأسره هذا المشهد، وتمنى أن يكون من المستفيدين لهذه الدروس، والناهلين مما فيها من معرفة.. ولما حاول الاقتراب طرده الناس ووبخوه.. وهكذا كانت طفولته مُرة بحرمانها وشقائها.. وأمام هذا الإقصاء والحرمان من حلقة العلم، أخذ يبكي حينما عزت عليه نفسه، فشاهده الشيخ الفخر ابن عساكر، وهو صاحب حلقة علمية بالمسجد، وعرف سبب حزنه ودموعه، فخفف عنه وبشره بأن يبدأ معه في رحلة طلب العلم من الغد، واستطاع هذا الشيخ أن يكون نقطة التحول في حياة العز، حينما ألحقه بالمسجد على نفقته الخاصة، ليبدأ تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن.!

لزم العز شيخه ابن عساكر، وواصل الليل بالنهار في طلب العلم، حتى أصبح من كبار العلماء في المذهب الشافعي، ورحل إلى بغداد، وتبحر في مختلف علوم الشريعة، ولقبه تلميذه الكبير ابن دقيق العيد (سلطان العلماء) وبهذه المكانة تولّى الخطابة والتدريس في الجامع الأموي الكبير، وتصدر للإفتاء والقضاء والخطابة.

كان العز خطيبًا بارعًا مؤثرًا في مستمعيه بصدق عاطفته، وغزارة علمه، لا يسكت عن خطأ، شديدًا في الحق قوالاً له ولو كان مرًّا، لا يهاب سلطانًا ولا ملكًا، وكان لا يعبأ بما يجد في سبيل ذلك من مشكلات وعقبات، لأنه كان يعد نفسه صاحب رسالة.

أدرك دولة الأيوبيين في أوج قوتها و أيام ضعفها، وأدرك دولة المماليك في نشأتها وعزها، عاصر بعض الحملات الصليبية على فلسطين ومصر، وأدرك غارة التتار على الدولة العباسية في بغداد، وشاهد كذلك هزيمتهم في عين جالوت بفلسطين بقيادة سيف الدين قطز سلطان مصر، بل كان واحدًا من صانعي هذا الانتصار.. وكان في كل هذه المراحل التي مرت بالأمة، له تأثيره وحضوره الفاعل، حتى كانت له هذه المواجهة الشهيرة مع الملك الصالح إسماعيل الأيوبي حاكم دمشق، حينما تحالف مع الصليبيين لقتال أخيه نجم الدين أيوب حاكم مصر، مقابل أن يُعطي لهم مدينتي صيدا والشقيف، ويسمح لهم بشراء السلاح من دمشق، ويخرج معهم في جيش واحد لغزو مصر.

ولم يكن للعز أن يقف أمام هذه الخيانة العظمى صامتًا مستكينًا بحجة أن الأمير ولي الأمر وتجب طاعته، أو أنها شؤون السياسة ميدانه وعمله، كما يفعل كثير من علماء السلاطين المنافقين، ولكنه ثار وأعلن رفضه لهذا المنكر، وتجريمه لهذه الخيانة، لأن أراضي المسلمين ليست ملكًا

للحاكم ولا لأبيه أو أمه حتى يهبها لمن شاء،كما لا يجوز بيع السلاح لأعداء الأمة المتربصين بها، وفي خطبة الجمعة بالمسجد الكبير، أعلن العز في قوة وصولة رأيه وحكمه، وتحريمه لهذه الفعلة الشنيعة، وأن الأمير خائن للأمة يجب خلعة لأنه لا ولاية لخائن.

ولما وصل الخبر للحاكم أصدر أمره بعزله عن الخطابة واعتقاله، ثم أفرج عنه وعزم الهجرة إلى مصر، فلما خرج إليها سنة ٦٣٨هـ، ثار أهل دمشق لخروجه، فبعث إليه السلطان وزيره يساومه فلحق به في نابلس، وطلب منه العودة فرفض، فقال له الوزير: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك، وإلى ما كنت عليه وزيادة، أن تنكسر للسلطان وتعتذر إليه وتُقبل يده لا غير، فقال العز في إباء وشمم: والله يا مسكين، ما أرضى أن يُقبل السلطان يدي، فضلاً عن أن أُقبل يده، يا قوم أنتم في وادٍ و أنا في وادٍ، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به، فقال له الوزير: قد أمرني السلطان بذلك، فإما أن تقبله وإلا اعتقلتك، فقال: افعلوا ما بدا لكم.! واعتقله جنود السلطان في نابلس، وظل في سجنه حتى جاءت جنود مصر وخلصته من الاعتقال.. و إنك هنا لناظر متأمل في قوله ورده، حتى تتجسد لك العلاقة الحقيقية والفهم البين لعلاقة العالم بالحاكم حينما يخون ويفرط في مصالح العباد، ويضر بالوطن والأمة، والتي هي على خلاف ما يزعم الفجرة من تشجيع الظلم وتأييد البغي والصمت والذل والانكسار أمام الحكام الخونة البغاة.

وأطلق سراحه وسافر إلى مصر، حيث رحب به الملك الصالح نجم الدين و ولاه الخطابة والقضاء، ولكنه مهما لقي من حفاوة الترحيب ومباهج الاستقبال، لا يثنيه ذلك عن إخلاصه لدينه، وولائه للحق والجهر به وإعلانه، مهما كانت الكلفة، ومهما عظمت التبعات، وهذا ما حدث حينما بلغه أن حانةً تبيع الخمور في القاهرة، وبعد أن تأكد من ذلك خرج إلى واليها نجم

الدين أيوب، فشاهد العساكر مصطفين حوله، ومظاهر الأبهة بادية عليه، والأمراء يقبلون الأرض بين يديه ، فالتفت الشيخ الجليل الصادح بالحق إلى السلطان وناداه: يا أيوب، ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أُبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟ فقال السلطان: هل جرى هذا؟ فقال الشيخ: نعم، الحانة الفلانية تُباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة! فقال الوالي: يا سيدي لم أفعل هذا، هذا من زمن أبي، فقال الإمام: أنت من الذين يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة؟ فأمر السلطان بإزالة تلك الحانة.. وعندما سأله أحد تلاميذه عندما رجع من عند السلطان وقد شاع الخبر: يا سيدي كيف قلت له ذاك؟ فقال: يا بني رأيته في تلك العظمة، فأردتُ أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه، فقال تلميذه: يا سيدي أما خفته؟ فقال: والله يا بني استحضرت هيبة الله تعالى، فصار السلطان أمامي كالقط.!

نعم إنا هيبة الله.. الذي إذا خافه الإنسان، أخاف الله منه كل شيء.. إنه إيثار ما عند الله على الدنيا الفانية ومتعها الذائلة.. إنه تعليم للعلماء من بعده كيف يقابلون السلاطين وينظرون لدنياهم ويوجهونهم في نصحهم، ويردونهم للحق في عزة وشجاعة، ولم يكن حده إلى هذا فقط، فكما اصطدم بالحاكم، جاء صدامه مع أمرائه المماليك، الذين امتلكوا الدنيا وتقلدوا مناصب الدولة، وتحكموا بنفوذهم في مفاصلها.. فكانت فتواه الجريئة المدوية أو قل: المزلزلة حين قال: إن بعض أمراء المماليك ليسوا أحرارًا ولا يزالون أرقاء، ولا تصلح ولايتهم وتصرفاتهم في أمور الدولة مالم يُحَرروا، فأخبرهم بذلك، فعظم الخطب وثارت ثائرتهم، فهاجوا وماجوا.. ولكنه صمم على الحق الذي ارتآه.. فاجتمعوا وأرسلوا إليه، فقال لهم: يجب أن نعقد لكم مجلسًا، وينادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي.. فرفعوا الأمر إلى السلطان فبعث إليه، لكن الإمام أبى الرجوع عن

قراره، فأنكر السلطان على الإمام فتواه، فغضب وخرج من القاهرة قاصدًا الشام، فلم يلبث أن خرج حتى لحقه أغلب المسلمين، لا سيما العلماء والصلحاء والتجار، فبلغ السلطان الخبر، وقيل له: متى راح ذهب ملكُك! فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيب خاطره، فرجع الإمام، واتفقوا معه أن يُنَادى على الأمراء لبيعهم حتى يحرروا.. وقال له نائب السلطان: كيف يُنادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؟ والله لأضربنه بسيفي هذا.. فركب بنفسه في موكبه، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده، فطرق الباب، فخرج ابن الشيخ فرأى من نائب السلطان ما رأى، فعاد إلى أبيه وأخبره بما رأى، فلم يكترث الإمام لذلك، وقال: يا ولدي! أبوك أقل من أن يُقتل في سبيل الله! ثم خرج الإمام فحين وقع بصره على النائب سقط السيف من يده، وأرعدت مفاصله فبكى، وأخذ يسأل الشيخ أن يدعو له، وانصاع لرغبة الإمام وتم له ما أراد، ونادى على الأمراء واحدًا واحدًا، وغالى في ثمنهم ما داموا أغنياء، لأن ذلك المال سيستفيد منه الفقراء، وقبضه بالفعل وصرفه في وجوه الخير.

ومن يومها لقب ببائع الملوك.! وكذلك لم ينتهِ دور العز أمام الظلمة والمتجاوزين، وإنما كان له دوره القوي والمؤثر في حرب الأمة، وجهاده لعدوها المتوحش، فشارك في الجهاد في سبيل الله ضد التتار الغاشمين.. وكان يحرض السلطان قطز على حربهم، وإشعال نار الجهاد في كل مكان ضدهم، حتى كتب الله النصر للمسلمين في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ.. وتوفي رحمه الله في عهد بيبرس الذي قال حينما شهد جنازته: (اليوم استقر ملكي، لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس: اخرجوا عليه، لانتزع الملك مني)!